

دراسة وفية

مَسْرِيَّة

”السلطان الحائر“

لَتَوْفِيَّ الحَكِيمِ

١ - الحكاية وبناء المسرحية

جوهر القصة التي استوحاها توفيق الحكيم من التاريخ ان احد النخاسين قد لفظ بان السلطان رقيق مملوك لم يعتق ومن ثم فسان حكمه للبلد باطل شرعا لانه لا يصح ان يحكم الناس الا رجل حر . وسرعان ما يقبض رجال الشرطة على هذا النخاس ويسوقونه للاعدام في ساحة عامة بالمدينة . ويلجأ النخاس الى عدل السلطان فيسأله ان يحاكم قبل تنفيذ الحكم ويقبل السلطان الطلب وتتم المحاكمة . وسرعان ما يتبين ان تهمة النخاس صادقة وان السلطان مملوك لم يعتق . ويلتمس الحاضرون وبينهم السلطان حلا لهذه الازمة الخطيرة فيصر قاضي القضاة على التزام حكم الشرع والقانون في هذه القضية ومضمونها ان يباع السلطان بالزاد العلني ، فاذا اعتقه المشتري صح ان يرجع سلطانا ويحكم الناس . ويتم البيع العلني فعلا في مشهد مثير وتكون المفاجأة المذهلة ان المواطن المتخفي الذي اشترى السلطان ليس الا المرأة الفانية التي يسميها الناس « عاهرة » . وتكون المفاجأة الثانية ان الفانية ترفض ان تمتق السلطان الا اذا قضى ليلة في منزلها ، على ان يكون اذان الفجر علامة انتهاء هذه الليلة . ويتم ذلك كله دون ان يلجأ السلطان الى الباطل او الى السيف في الخلاص من مآزقه المتلاحقة . غير ان الفانية تضطر الى توقيع وثيقة العتق في منتصف الليل لان قاضي القضاة دفع المؤذن بالقوة الى ان يؤذن اذ ذاك لصلاة الفجر . وتنتهي المسرحية بسورة عاطفية نبيلة تجيش بها نفس الفانية ، وتترقق في المشهد كله معان فلسفية وانسانية مؤثرة تضيف قيمة حية جديدة الى ادب توفيق الحكيم .

هذا ملخص الحكاية كما رسمها المؤلف في المسرحية ، وعليها بنى عملا فنيا مثيرا في ثلاثة فصول . فاذا اردنا ان ندرس اسلوب العرض الفني الذي استعمله توفيق الحكيم لاحظنا انه التزم تخطيطا عاما في الفصول كلها : فكان يبدأ الفصل بعرض المشكلة من وجهة نظر الجمهور الذي يمثلها شخص او شخصان ، ثم ينتقل ويعرض وجهة نظر السلطان وحاشيته .

وفي الفصل الاول يبدأ العرض بتقديم (محكوم عليه) مجهول الهوية مشدود الى عمود في ساحة عامة بالمدينة والى جانبه جلال

تستمد هذه المسرحية مادنها الاولية من احداث التاريخ العربي في عصوره المتأخرة ، وان لم تكن هي في ذاتها مسرحية تاريخية . ذلك انها لا تتقيد بسيرة اشخاص بعينهم مأخوذ من التاريخ بحيث نسردهم لمحات من حياتهم تجسمها في اطار مسرحي ، وانما استلهمت التاريخ في استحداث شخصيات تمثل نماذج بشرية عامة مثل الفانية وقاضي القضاة والوزير والسلطان والخمار والاسكافي . وقد حرص توفيق الحكيم على ان يضمن لنفسه النجاة من حساب الذين يعنون بالمحافظة على جوهر الحقيقة التاريخية ، فلم يضع لهؤلاء الاشخاص اسماء تميزهم وانما تركهم « نماذج » كما قلنا ، وبذلك لم يعد من حق الناقد ان يحاسب المؤلف على تحريفه لشخصية هذا او ذاك من رجال التاريخ . ولقد اتاح ذلك لتوفيق الحكيم فرصة يخرج فيها على ملامح الشخصيات الواقعية التي قد يكون استمد منها اصول المسرحية . ومنها شخصية العالم الاسلامي عبد العزيز بن عبد السلام (١) المتوفي سنة ٦٦٠ هـ ، وكان ذا شخصية قوية منسلطة ، وشغل منصب القضاء وغيره وكان مسموع الصوت لدى السلاطين ، لا يبالسي ان يخالفهم نصرة للحق ، وقد يفرض عليهم رأيه وعقيدته . والواقع الذي لا بد لنا ان نقرره انه ما من دليل مطلقا على ان توفيق الحكيم قد ارتكز الى هذه الشخصية في رسم صورة « قاضي القضاة » لانه لم يسمه باسمه في المسرحية . غير ان ادارة المسرح القومي (الذي مثلت عليه المسرحية اول مرة في القاهرة) قد اشارت في اعلاناتها الى شخصية هذا القاضي باعتبارها مصدرا لاحداث الحكاية حينما عرضت المسرحية في القاهرة اول مرة (٢) . وهذا غير ملزم لتوفيق الحكيم على أي وجه من الوجوه ما دام لم يتقيد فنيا بالاسماء .

١ - اخبار عبد السلام موجودة في ذيل مرآة الزمان - المجلد الاول لقطب الدين اليونيني الحنبلي ص ١٧٢ - كذلك ذكره ابن العماد الحنبلي في كتابه « شذرات الذهب في اخبار من ذهب » ص ١٠٣ .

٢ - معلوماتنا عن اخراج المسرحية في القاهرة مستندة الى كتاب الدكتور محمد مندور « مسرح توفيق الحكيم » وقد ادرج فيه جانبا من اعتراض اثاره الاستاذ أمين الخولي حول تاريخية الشخصيات في المسرحية .

مبتذل في حالة سكر . ونفهم من السياق أن هذا التهم نخاس يبيع الرقيق وقد اتهم السلطان بأنه عبد مملوك لم يعق فلا يصح لسه أن يحكم البلد . ثم ينتج لنا المؤلف أن نعرف الموضوع من وجهة نظر السلطان الذي كان يحسب أنه قد عتق .

وفي الفصل الثاني يحدث شيء يشبه هذا فهو يبدأ بعرض خواطر الجمهور ومشاعرهم . ويكون الخمار والأسكافي والجلاد رمزاً لسكان المدينة ينقل ذهشة العامة من أن السلطان يباع في المزاد العلني كما تباع الأشياء . ثم تنتقل إلى مشهد البيع فنعرف وجهة نظر السلطان ومسلكه الفذ في هذا الموقف المصيب .

ولا يحيد الفصل الثالث عن هذه الخطة الفنية ، فهو يبدأ بالجمهور المستثار وقد تجمع حول منزل الفانية يتساءل في ريبة صارخة عما يفعله السلطان هناك . وحين يتأزم تطلعا ينقلنا توفيق الحكيم إلى داخل المنزل لنعرف ما يدور فيه . وهذا الأسلوب الذي استعمله المؤلف في عرض جانبين مختلفين للموضوع في كل فصل قد أتاح لنا المقارنة المستمرة بين مواقف الأشخاص المختلفين بإزاء الأحداث وكشف عن نفسياتهم ومسالكهم .

وقد استعان توفيق الحكيم ببعض الوسائل المسرحية في بنسائه عمله الفني ومن ذلك أسلوب (التقابل والتضاد) (ما يسمى عند الإنكليز Parallelism and Contrast) فكان آذان الفجر أحد التفاصيل التي انتفع بها في شد أجزاء المسرحية وربطها وأحداث نبيرة من الفكاهة فيها . ففي أول المسرحية يتعلق بآذان الفجر قتل رجل قال الحق . وعندما يصبح الآذان موعدا لإراقة الدماء البريئة تتقدم الفانية وتتفق مع المؤذن على خدعة وذلك بالا يؤذن للفجر تلك الليلة فيبطل الحكم وينجو المحكوم عليه .

وفي الفصل الثالث كان آذان الفجر موعدا لخروج السلطان من منزل الفانية ، وقد تجمعوا حول المؤذن وأوحوا إليه أن بقاء السلطان في هذا المنزل يطفخ شرفه ويسيء إلى مكانته ثم الحوا عليه أن يؤذن للفجر في منتصف الليل . وآذن المؤذن راضخا . فهذا المؤذن قد أقام نوعا من الربط بين الفصل الأول والفصل الثالث . ووجه الارتباط المسرحي أن الفانية التي انتصرت على الجلاد في الفصل الأول بالتحكم في الآذان ، قد دحرها قاضي القضاة في الفصل الثالث بالتحكم في الآذان نفسه ، وبذلك انتهى حلمها الجميل وخرج السلطان من منزلها . ويحصل التضاد المسرحي Contrast من كون الآذان يخدم الفانية مرة ويدحرها مرة . أما مغزى التدخل في قضية جليلة لها قداستها مثل الآذان فسنتف عنه فيما بعد حين ندرس فلسفة المؤلف في مسرحيته .

كذلك لجأ توفيق الحكيم ، في بعض وسائله المسرحية ، إلى أحداث حادثة صغير يؤدي معنى معيناً ثم تكرر في حادث أكبر يؤدي المعنى نفسه وهو ما يسمى في النقد الغربي اصطلاحاً بالتقابل (Parallelism) ويتجلى ذلك الحادث الصغير في موقف الطفل الذي يريد أن تشتري له أمه « السلطان » . فسان شراء السلطان بالنسبة للطفل مجرد نزوة طارئة وكان السلطان لعبة من اللعب المسلية . وقد اراد توفيق الحكيم بهذه اللبسة التمهيد لموقف الفانية التي كانت أول الأمر تلهو كالطفل فأرادت أن تشتري السلطان لتستمتع بصحبته وتزين به مجلسها (تلعب بكلمة أخرى) . فنكرار الدافع الطفولي في الحالتين يخلق جواً من الشبه بين الطفل والفانية . ولنتقارن الدوافع .

دار الحوار التالي بين الطفل وأمّه :

الطفل - هل للسلطان سيف ؟

الأم - نعم ، سيف كبير .

الطفل - وهل سيبيعونه هنا ؟

الأم - نعم يا بني

الطفل - متى يا أمّاه ؟

الأم - عما قليل .

الطفل - أمّاه ، اشتريه لي .

الأم - ماذا ؟

الطفل - السلطان . اشتري لي السلطان .

الأم - اسكت . أنه ليس لعبة تلعب بها .

الطفل - أنك قلت أنهم يبيعونه هنا . اشتريه لي إذن .

الأم - يا بني . اسكت . هذا ليس مثلك .

فالطفل لا يريد أن يشتري السلطان إلا لأنه يحب أن يلعب به ويسيفه وقد حسبه لعبة من اللعب . والموقف هنا مجرد من أي جد وإنما هو نزوة عابرة في قلب طفل صغير . ثم لندرس مضمون موقف الفانية من شراء السلطان . دار الحوار التالي :

الفانية - لا . لا أريد أن أترك . لا أريد أن أتخلى عنك . أنت مملوك لي . أنت لي ، لي .

السلطان - لك ولغيرك من أبناء هذا الشعب .

الفانية - اني أريد أن تكون لي وحدي .

السلطان - وشعبي ؟

الفانية - شعبيك لم يدفع فيك ذهاباً ليحصل عليك .

وفي موضع آخر تقول له : « حقاً . وأي فخر وأي سرور أن اسمع هذا من فم سلطان عظيم . أنه لشرف يستحق أن يدفع له ذهب الأرض كله . ما من أحد يجسر بعد اليوم على ازدرائي في المدينة فأنسا أسىء معاملة السلاطين . » وفي موضع آخر تقول له أن عليه أن يحكم الشعب من بيتها إذ تعيره للدولة نهارة وتسترجعه ليلاً . فهذه الفتاة كما يبدو من مسلكها الصبياني تحسب السلطان حلية لطيفة يمكن أن تقتنيها . وموقفها في ذلك يشبه موقف الطفل .

ومن الوسائل اللطيفة التي قوت بناء المسرحية تلك المفارقات التي نثر عليها فيها . فالمحكوم عليه مثلاً ينجو من القتل ويبيع هو نفسه السلطان ، بينما كان المقرر أولاً أن يقتل بأمر السلطان .

والمفارقة الثانية تكمن في حقيقة الفانية ، فالمسرحية تبدأ ونحن نحسبها « عاهرة » ساقطة يسخر الجلاد من وصفها لنفسها بالسيدة ولا تنتهي المسرحية إلا وقد ارتفعت إلى أعلى مقام لأن السلطان نفسه يسميها السيدة الفاضلة النبيلة .

والمفارقة الثالثة يتضمناها موقف القاضي فهو في بداية المسرحية أعلى مثال للذين يحترمون القانون ويؤمنون بقديسيته ، ولكن تقدم الأحداث يعرّيه بين أيدينا ويوقفه نموذجاً سيئاً للتحايل على القانون والعبث به لأغراض غير قانونية فيها ظلم للناس . وهكذا ترتفع الفانية وينحدر القاضي . الفانية التي هي احظ فرد في الدولة والقاضي الذي هو أعلى فرد فيها بعد السلطان ، وكان تبادل يقع بينهما في قوة الخلق ونظافة السلوك .

٢ - دراسة الشخصيات

١ - شخصية السلطان

رسم توفيق الحكيم في السلطان شخصية محبوبة تنزل من نفس القارئ منزلاً جميلاً فمنحه صفات طيبة كالعدل ورحابة الصدر والحكمة والشجاعة والذكاء وسرعة الخاطر واحترام القانسون ورقعة الشعور . وخالصة القول أنه جعله انساناً رقيق المشاعر مستقيماً كريم الطباع واعطاه إلى جانب ذلك الصبر وروح النكتة فسي المواقف الحرجة . وسنحاول فيما يلي أن نمثل لهذه الصفات فيه بنماذج من سلوكه واقواله تثبتنا وتؤكدنا .

أما عدالة السلطان فقد تجلت في سماعه لظلامة المحكوم عليه عندما تقدم يطلب أن يحاكم قبل اعدامه ، فقد لبى السلطان طلبه فوراً وأقبل مع قاضي القضاة إلى ساحة الإعدام حيث يحاكم . وعند هذا قد يوجه إلى المؤلف نقد : فهل من العقول أن سلطاناً يحاكم متهماً في ساحة عامة ؟ ولماذا لم يستدعه إلى مجلس السلطنة لمحاكمته كما هو الدارج في هذه الحالات ؟ في الواقع أن توفيق الحكيم كان مضطراً

الى هذه « الفلطة » المسرحية اضطرارا لان التأليف المسرحي - كما هو معروف - يلزم المؤلف بالحفاظ على وحدة المكان في الفصل الواحد . والمحكوم عليه كان مشدودا الى عمود في الشارع ، لكي يكون امام منزل الفانية ، ومن ثم فلا بد من ان يؤتى بالسلطان واتباعه الى هذا الموضع نفسه حفظ لوحدة المكان ورفعة في عدم تغيير المنظر . فكان هذا الاخلاا بمعقولة الاحداث وتحريفا للواقع . ولعلنا لا نحتاج الى القول بسان المسرحية الكاملة ، لا تخضع للضرورات الخارجية ، وانما حاكمها الوحيد منطق الفن . ولقد كان في امكان مؤلف قدير متمكن مثل توفيق الحكيم ان يتحاشى هذا التعسف لو بذل جهدا اضافيا فسي التخطيط لهذه المسرحية البديعة .

واما شجاعة السلطان فتبدو على ضربين : احدهما معنوي والاخر مادي . فالشجاعة المعنوية تبدو في صبر السلطان على تلك المواقف الحرجة المهينة التي تعرض لها ، فقد ووجه - وهو السلطان المهيب - بانه عبد رقيق لم يعتق ، فقابل ذلك في رحابه صدر واضحة ولسم يقضب ولم يفعل وانما تقبل الامر اجمل تقبل . ولو كان غيره في مكانه من القوة لربما شهر السيف غضبا .

وتبدو شجاعته الفعلية في ميدان القتال ، فقد سمعناه يصف مسلكه قائلا : « لم يحدث قط اني رجعت خطوة واحدة الى الوراء ولا حتى في ميدان القتال . اعترف ان هذا خطأ من الناحية الحربية فهناك احوال ينتجتم فيها التفهقر . ولكني ما فعلت هذا قط . » ويقول في موضع آخر ذاكرا حروبه : « انا الذي كان قائدا للجيش وقاهرا للمفول » ولقد كان ينتصر في حروبه وقد انتزع بحد سيفه ياقوتة فريدة من رأس كبير المفول . والمسرحية كلها تصفه قائدا منتصرا مشغولا بالحروب والاعمال الجيدة حتى لا يجد وقتا للمواظف والزواج . وحكمة السلطان يعترف بها الآخرون ومنهم المحكوم عليه الذي عرفناه صريحا جريئا الى حد انه قابل السلطان بحقيقة رقه وعبوديته دون ان يخاف العقاب ، ومن ثم فنحن نتقبل قوله له : « بل انت من خيرهم حكمة وسدادا ابفالك الله ذخرا لرعبتك » .

ونعرف في السلطان صفات اخرى نصت عليها الفانية في قولها له : « ما من شيء يصعقك . ان لك لرباطة جاش وثقة بالنفس وتحكما في اعمالك وقدرة على صنع ما تريد بدقة واحكام وحزم . انك بعيد عن الضعف والمخاتلة . انك صريح طبيعي شجاع تختصم شروط اللعب بامانة واخلاص . » ثم تصيف الى ذلك بعد قليل قائلة : « انك غايبة في الذكاء والفظنة بل وفي رقة الشعور أيضا على الرغم مما يبدو عليك ومما تتظاهر به » . ونحن نقبل هذه الاحكام من الفانية ونعتبرها وصفا صادقا للسلطان ، لاننا عرفنا هذه الفتاة جريئة صريحة السي درجة انها سلمت السلطان « بضاعة » وطلبت تسليمها في بيتها . وقد اعترف السلطان نفسه بانها « تسمى معاملته » واعترفت هي قائلة : « كنت وقحة معك عن عمد ومتبذلة سليطة عن قصد . » فاذا انت عليه وامتدحته بعد ذلك امكن لنا ان نعد ذلك منها تشخيصا صادقا لصفات حققة فيه .

ومن مظاهر الذكاء وسرعة الخاطر في السلطان انه أدرك مراد قاضي القضاة سريعا عندما لخص له موقف الاختيار الضروري بين احتمالين فقال له : « فما عليك يا مولاي سوى الاختيار بين السيف الذي يفرضك ولكنه بعرضك وبين القانون الذي يتحداك ولكنه يحميك . » وقد ادرك السلطان فورا ان هذه العبارة هي الجوهر الاساس في حديث القاضي فراح يقلبها في ذهنه ويكررها . ونحن نلتفت الى هذا الادراك ونبرزه ونلج عليه ، بسبب ما نعرف من ان اغلب الناس - دائما - يضيئون في تفاصيل الاحاديث ولا يستطيعون النفاذ الى جوهرها . ولا يمكن لانسان ان يشخص الاسس الا اذا امتلك العقل الناضج ووضوح الفكر وقوة الشخصية . وهذا السلطان الفذ يملك هذه القدرة . وانما نقدر موقفه في هذا الموضع عندما نتذكر انه في اول المشهد اندفع الى فكرة القتل حسلا للمشكلة منقادا لحماسة الوزير في هذا الاتجاه . فما كاد قاضي القضاة يبين له تفاصيل الحالتين وتناجها حتى تحمس موضع الاشكال والحيرة وتفهم المسألة

تفهما ذكيا ووقف من ثم حائرا . ولو كان في مكانه انسان آخر اقل ذكاء وحساسية لما استطاعت عبارة واحدة من قاضي القضاة ان تحول مجرى تفكيره هذا التحويل الخطير .

ونصل عند هذا الى موقف السلطان من القانون واحترامه العميق له وتمسكه به تمسكا مطلقا بعد ان شرح له القاضي وجه المسألة . فما كاد السلطان يفهم حتى صاح « القانون ... اخترت القانون » وكان هذا الاختيار دلالة على قوة اكيدة في شخصية السلطان لانسانا حين تنامل مضمون هذا القانون نجده ينطوي على اهانة بالغة للسلطان وهل هو الا ان يباع هذا الحاكم الجليل بالزاد العلي امام شعبه كما تباع الاشياء ؟ ومن ثم فان اختياره ينطوي على معاني الصبر والبطولة والتضحية والا فما كان أسهل ان يحمل سيفه ويقتل القاضي فلا يحاسبه أحد ، كما صنع المعز لدين الله الفاطمي الذي قص الوزير قصته .

اما الممانعة الاولى الفورية التي لسانها لدى السلطان فهي لا تدل الا على انه اخذ وقوفي ودهش عندما سمع اول مرة انه (في نظر الشرع والقانون عبد رقيق . والعبد الرقيق يعتبر قانونا وشرعا شيئا من الاشياء ومناعا من الامتعة) وان عليه ان يحتمل البيع بالزاد العلي امام الشعب . واي سلطان لا يذهل ويخرج عن اطواره حين يسمع مثل هذا ؟ فاذا رأيناه يندفع بلا تفكير ويخطر له اختيار السيف للتخلص من هذه الازمة العويصة فان ذلك يشخص انفعالاته الاولى ازاء ما يسمع . اما عندما فكر وتدبر وتأمل فانه لم يختر الا القانون راضيا لنفسه الاهانة الكبرى وهي البيع العلي امام الجمهور . فلا ينبغي للناقد ان يحكم بان السلطان دموي المزاج وانما هو على العكس من ذلك متسامح صبور وقد رأينا من سماحته وصبره بازاء وقاحة الفانية وسوء معاملتها ما رفع مكانته في أعيننا درجات . ولقد رأيناه يسلك بازانها مسلك العقل فلا يلجأ الى السيف كما ينصح الوزير وانما يختار الصبر واللين والتعقل ثانية فيدور هذا الحوار الجميل :

الوزير - يا مولاي ، ما دام القاضي قد أخفق وأفلس فلنرجع الى وسائلنا نحن .

السلطان - لا ان نرجع الى الورا .

الوزير - بالسيف يتم كل شيء في يسر ويحل في طرفة عين .

السلطان - لا ، لقد اخترت القانون ، وسامضي في هذا الطريق

مهما يصادفني فيه من احوال .

الوزير - القانون ؟

السلطان - نعم . ولقد قلتها أنت منذ قليل ونطقت بالفاظ جميلة .

ان السلطان اختار ان يخضع للقانون كما يخضع له أضعف فرد في

رعيته . ان هذا القول الرائع يستحق ان يبذل في تحقيقه كل جهد .

ويلتجى السلطان الى محاولة اقتناع الفانية بلين الكلام وقسوة

المنطق وبذلك يدل على تسامحه وصبره ثانية ، وذلك هو الذي يؤثر في

نفسية الفانية فتعجب من رحابة صدره ورقة شعوره وسماحته وتكون

النتيجة ان تتراجع عن موقفها التعسف . وتكون الفلسفة الجديدة التي

تلخص موقف السلطان من هذه الاحداث جميعا قوله : « ان السذي

يمضي قدما الى الامام في خط مستقيم يجد دائما مخرجا . » ويضيف

الى ذلك في موضع آخر : « الانتصار الحق هو في حل العقدة بلباقة

الاصابع » اي في عدم استعمال السيف . وقد مضى في هذا الى درجة

انه قرر ان ينزل عن عرشه ان أخفق في حل المشكل عن طريق القانون .

وقد شرح ذلك للفانية واخبرها انه مصر عليه ، فتفجرت بالاعجاب به

والثناء عليه كما سبق ان ذكرنا .

وتكمن المفارقة الواضحة في موقف قاضي القضاة الذي كان حاميا

لقانون متمسكا به كل التمسك في الفصل الاول ، فاذا هو في الفصل

الثالث يستهين به ويخرج عليه ليذل الفانية ويخيب املها . اما

السلطان فقد انقلب موقفه من ذلك الذي حاول النهرب من القانون في

الفصل الاول الى هذا الذي تفجر يعاتب القاضي فسي الفصل الثالث

على عينه بتفسير القانون من أجل رغباته الشخصية وعندما نسمع

كلمات السلطان تنزل في حرارة وانفعال : « خبيت ظني فيك يا قاضي

القضاة . اهذا هو القانون في رأيك ؟ اجتهاد وبراعة فسي التحايل والتلاعب ؟ »

وكان السلطان في هذا انسانا رفيق الشعور فقد عز عليه ان تدفع الفتاة كل اموالها ثمنا ليلية واحدة يقضيها السلطان في منزلها ، ومع ذلك يحتمل عليها فاضي القضاة ليخرج السلطان فسي نصف الليل . وكان السلطان قد قدر موقف الفتاة كله واجل نصحيتها فرأى من حقها عليه ان يكافئها بتحقيق رغبتها الصبيانية فسي ان نرى السلطان فسي منزلها . ولذلك وجد في موقف القاضي الذي حرّمها هذه الفرصة بظلمه ، اساءة لا تتفرد وعيّا بنصوص قانون صريح .

على ان المشاهد والقارىء لا يملك ان يتساءل الا ان يتساءل هنا كما تسألنا : هل أحب السلطان الفتاة فكان ذلك دافعا الى رغبته في اتمام الليلة في منزلها ام انه اراد بذلك مجرد الدفاع عن رغبة الفتاة نفسها ؟ وسواء كان الامر هذا ام ذلك ، فلا ينبغي لنا ان نجرد السلطان من حرصه على تطبيق القانون حتى ونحن نفهم انه قد مال بقلبه الى الفتاة ، لانه اثبت هذا الحرص على القانون في مواقف متعددة فيل ذلك . ولان منطق النفس الانسانية منطق معقد تتشابك فيه العوامل والدوافع فسي اغلب الاحيان ، وتمثل هذه القاعدة عند ذوي الضمائر الحية والمثل السامية على الخصوص لان دوافعهم الخلفية النبيلة كثيرا ما تربط بدوافع عاطفية غزيرة تملئها عليهم سمعة آفاقهم واحشاد مواردهم . وهذا يجعل مسلكهم ازاء القضية الواحدة غنيبا بالدوافع الكثيرة والاعتبارات .

٢ - شخصية الفاتية

يقوم السؤال في نفس القارىء والمشاهد حول هذه الفتاة : اشريفة هي ام ساقطة ؟ اما نص المسرحية فهو يبرزها فاجرة في نظر المجتمع ، لان الرجال يزورونها ويسمرون في منزلها وينعمون بالموسيقى وبالشرب والرقص . وتكن نوبيك الحكيم قد حرص على اظهار الظلم والاعتداء في هذه النظرة ، لان الفتاة في حديثها الى السلطان تكشف عن حقائق تغير الموقف فتعلم انها امرأة حرة التفكير تريد للمرأة ان تخرج من ضيق الاقوف وتزمت القيود ، فتجالس الرجال مجالسة عاقلة بريئة فيها الفن والثقافة والسمر دون ان تكون لها علاقات آمنة بهم . وقد سمعنا الفاتية تقول للسلطان في هذا الصدد « تحلو لي صحة الرجال من اجل ارواحهم لا من اجل اجسادهم » . وقد كان السلطان في بداية حديثه اليها لا يحترمها وانما يسميها « أيتها المرأة » وهي تسمية مهينة فيها اشعار بانها غير شريفة . ولكنه بعد ان جالسها وعرف تفاصيل حياتها وتفكيرها أصبح يحترمها بان يوحى اليها بانها رغم مظان العيب في حياتها سيدة شريفة اخطا المجتمع فهمها بسبب الملابس الخارجية . وفي هذه الحالة يصبح حكم المجتمع عليها بالجور حكما على المجتمع نفسه بالجهل والجمود والسطحية بحيث تبدو الشريفة عاهرة . والواقع ان توفيق الحكيم لا بد وان يكون قصد هذا واراد ان يوجه نقدا صامتا الى مجتمع العصور العربية المتأخرة الذي عزل المرأة عن الحياة ومنعها من العمل والاختلاط والحركة خلافا لما كانت عليه نساء العصر الاول للإسلام حين كانت المرأة تركب الخيل وتطلب العلم وتشارك في الحروب وتجالس الرجال في المجالس الادبية ، ولدينا في هذا الصدد اسماء نساء عربيات لامعات مثل السيدة سكيئة بنت الحسين والخنساء الشاعرة وليلى بنت طريف الشاري وسواهن . ولم يصبح عزل المرأة عرفا اجتماعيا دارجا إلا في عصور الكوارث والظلام الاخيرة حين خيم الجهل والجمود على المجتمع العربي . وكل ذلك قد جعل توفيق الحكيم يمتنع نموذجاً متحرراً لامرأة عربية تشور على التقاليد البالية في ذلك العصر فتكون النتيجة ان يسميها الناس « عاهرة » .

ولا بد لنا ان نلاحظ ان هذا الاسم القارص الذي أطلقه الناس على الفاتية قد أثر في حياتها وجعلها أحيانا تتحلل من مبادئ السلوك المستقيم وتو تحللا جزئيا . فقد كانت تتألم أشد التألم من ان المجتمع يعتبرها ساقطة ، مثال ذلك هذا الحوار الذي دار بينها وبين السلطان في الساحة العامة خلال المزداد العلني :

السلطان - أترين هذا الوضع مقبولا ؟

الفاتية - أكثر من مقبول . أراه مدهشا .

السلطان - هو مدهش فعلا . سلطان يصرف شؤون الدولة من بيت امرأة يقال انها ... لا تؤاخذيني . معذرة .

الفاتية - فل قل . الكلمة لم تعد تجرحني لكثرة ما تلقيت من وخزات . تكسرت النصال على النصال .

ومن هذا الحوار نعلم ان الفاتية قد عانت معاناة طويلة دامية من سماعها لفظة « عاهرة » يطلقها الناس عليها . ثم بدأت تتقبل الاسم وتستكت . ولكن هذا الاسم دفعها الى الجراءة والسلطة وعدم الاكتراث بقواعد السلوك ولو الى حد ما . ويتجلى ذلك في موقفها من الجلال في الفصل الاول . فقد ارسلت اليه خادمها لتضربه بالفعل . وهذا موقف لا نغف سيدة شريفة ، فالشريفات لا يضربن الرجال بالنعال مهما تكن الاسباب الدافعة الى ذلك . ثم انها تشتري للجلاد خمرا وتسقيه ، ومع انها تفعل ذلك انفاذا للمحكوم عليه بالاعدام الا أنه يترك في نفوسنا تساؤلا عن الطبقة التي ننتمي اليها هذه المرأة التي يسمي الناس الخمر على حسابها .

ومهما يكن فان الفاتية تفلسف موقفها هذا للسلطان فائلة : « ظن بي السوء ما شئت ، ليس من عادتي الدفاع عن نفسي ضد ظنون الآخرين . اني في أعين الناس امرأة سيئة السيرة وقد انتهى الامر بي الى قبول هذا الحكم وقد وجدت في ذلك الراحة لي . ولم يعد من مصلحتي تصحيح رأي الناس » . ثم نضيف العبارة التي تلخص فلسفتها وهي قولها : « عندما يجتاز الانسان أقصى حدود السوء فانه يصبح حرا . وانا احتاج الى حريتي . » ومضمون هذه الفلسفة ان الانسان يفيد نفسه بقواعد عسيرة التطبيق من السلوك طلبا لسعادة السعور بحسن السمعة بين الناس ، فاذا انهم هؤلاء الناس لم يعد له ما يحرص عليه بينهم ، وهذا مرير مؤلم غير ان له جانبا مبهجا - على رأي هذه الفاتية - هو ان التهم يكتسب حريته فلا يعود يهمله ان يتقيد بالقواعد المتعارف عليها . والفاتية تسمى نبذ القواعد الخلقية حريسة وتقول انها تحتاج الى هذه الحرية . ولذلك نراها تستخدم في منزلها خادمة سليطة لا تبالي ان تضرب رجلا سكران بالفعل ، وهذا السلوك وغيره يبرر عند الناس تسميتهم لها بالعاهرة . اما السلطان فهو لا يعرفه عندما يسميها « السيدة الفاضلة » فكل حكمه عليها مرتكز الى اقوالها .

وخلاصة القول انه اذا كان توفيق الحكيم يقصد ان نعتبر الفاتية امرأة شريفة فقد كان عليه ان يثقي حياتها من هذه المآخذ . ذلك ان المرأة الفاضلة ترفض ان تتحرر من قواعد السلوك حتى اذا سماها المجتمع عاهرة . لان في الاخلاق الفاضلة لذة للفاضل لا تزول حتى اذا فقد سمعة الفضيلة . والخلق التي صفة راسخة في قلب المتخلق لا تزغها التسميات . وانما يبدو لنا ان هذه الفتاة غانية كما سماها توفيق الحكيم لها بعض صفات الشريفات ولكن على سلوكها مأخذ . ومن ثم فيكون السلطان قد تجوز عندما سماها بالسيدة الفاضلة ورفع مستواها من طبقة الى طبقة أعلى وأرفع . وهذا قد يستتلي ان السلطان قد أحبها ووقف منها موقفا عاطفيا محضا جعله يندفع الى رفع مستواها الاجتماعي .

ولكن موقف السلطان من الفاتية لم يكن كله نابعا من العاطفة وانما استند جانب منه الى التقدير الانساني لما صدر عنها من نبيل وكرم أخلاق ، فقد وقفت من السلطان موقفا نبيليا يستحق الإعجاب . ذلك انها اشترته بكل ما ادخرته خلال حياتها من أموال وهو مبلغ ثلاثين ألف دينار نعلم من حديث (المجهول) موكلها انها لا تملك غيره . ولم يكن دافعها في بداية هذا الموقف نبيليا ، فنحن ندرى انها اشترت السلطان لا لتعته ولا لتحرره ولا لتعبه للشعب حاكما عادلا شجاعا وانما كان دافعها الاول تعبيراً عن نزوة صبيانية طارئة فسي اعجبها ان يكون السلطان مملوكا لها لترحم معه وتلهو وتستمتع ، وراق لها ان تراه يحكم الشعب من بيتها فترتفع فيمنها وتزول الوصمة عن سمعتها . فكانت دوافعها الى الشراء اثنائية محضة . او لعلها ارادت ان تنتقم من

المجتمع الذي أذلها بأن تذل سلطانه الحاكم وتجعله عبداً رقيقاً لها .
غير أن هذه الدوافع الأولى ما لبثت أن تلاشت عندما أفهمت
الفانية حقيقة موقفها وتناجى . ومؤدى ذلك أن على السلطان أمياً أن
يكون عبداً في منزلها ويتخلى عن العرش أو أن تعتقه ويكون سلطاناً
وعند هذا تقول الفانية « انه مؤلم أن أترك تذهب ، ان أفدك الى
الابد ، ولكنه مؤلم أيضاً ان أراك تفقد عرشك ، لان بلادنا لن يتاح لها
ابداً سلطان في مثل عدلك وشجاعتك . لا . لا تترك الحكم ولا تعتزل
العرش . أريد ان تبقى سلطاناً . » ومن ثم فأنها قد اختارت بين
الامرين العسيرين : « العبودية التي تمنحه لها والحرية التي تحفظه
لعرشه وشعبه . » وهذا الاختيار هو موضع الثبل في موقفها فقد
حرصت على مصلحة الشعب وتحت عن امتلاكها للسلطان وبذلك خسرت
مالها وفرصة السعادة في حياتها معاً . ورجعت امرأة فقيرة سيئة
السمعة في سبيل حرية الشعب ورفاهيته . فهل من تضحية أكبر من
هذه ؟

وقد يقال في مناقشة تضحياتها ، انها كانت مضطرة اليها ، لانها
خشيت ان يقتلها السلطان ان لم تعتقه كما هدد الوزير . غير ان
توفيق الحكيم لم يجعل هذا دافعا للفانية مطلقاً ولم يجعله يدور في
خلدها . وقد سمعنا السلطان نفسه يؤكد اختياره للقانون واصراره
على المضي في تنفيذها الى النهاية دونما لجوء الى السيف . فالفانية
آمنة من هذه الناحية فضلاً عن ان الخوف لم يتسرب الى نفسها قط ،
فحتى لو كان احتمال القتل قائماً فان الفانية لم تفكر في هذا الاحتمال
ولم تحكمه في موقفها وانما كان مسلحها حراً حرية خالصة ودافعة وطنية
غيرية لا أنانية فيها . وتزيد الفانية نبلاً كلما تقدمت الاحداث ، وثبتت
كرماً خلقياً نادر المثل . فعندما يؤذن المؤذن في منتصف الليل ويخرج
السلطان ويوجه اللوم الى القاضي قائلاً : « وانت يا قاضي القضاة ،
الا تتجمل من اللعب هكذا بالقانون ؟ » اذ ذلك رفضت الفانية ان تكون
أنانية وان تتقبل حرص السلطان على اكمال الليلة معها حتى الفجر
قائلاً : « اما أنا فساحترم شرط هذه السيدة بمعناه الحقيقي الذي
فهمناه كلنا . هلمي يا سيدتي . لنعد معاً الى بيتك . اني طوع
أمرك . » عند هذا تقول الفانية : « لا يا مولاي السلطان ، ان قاضي
قضاةك أراد ان ينقذك ، واني لا أحب ان اكون أقل منه اخلاصاً لك .
انت الآن حر يا مولاي . » وبادرت الفانية الى توقيع حجة العتق وقد
اختارت بذلك ان تخسر حتى الليلة المنفردة التي اشترتها بمالها كله .
وهي بهذا قد رفضت ان تستغل نبيل السلطان وحرصه على تنفيذ
شرطها فاعطته حريته كاملة دون ان تجبره على شيء .

ثم ماذا ؟ عند هذا يقول السلطان : « فلننتقم بالثناء على كرم
هذه السيدة النبيلة . اسمحي لي يا سيدتي ان اوجه لك شكري وأن
ارجو منك ان تقبلي رد مالك اليك . » واذا ذلك تندفع الفانية متوسلة :
« لا يا مولاي السلطان . لا تسترد مني هذا الشرف . ما من ثروة في
الارض تعدل عندي هذه الذكرى الجميلة التي ساعيش عليها طيلة
حياتي ، اني بشيء زهيد أسهمت في حدث من أعظم الاحداث . » وترفض
حتى ان يهدبها السلطان الياقوتة الفريدة المخططة في عمامته ، لانها
لا ترى نفسها جديرة بها .

ومغزى هذا الرفض من الفانية عميق ، فهي ترفض المال وترفض
الهدية لانها تقيم عواطفها نحو السلطان تقيماً معنوياً خالصاً يجعل المال
والياقوت يبدو ناقهاً بازائه . ولذلك ترفض التعويض المادي رفضاً
قاطعاً . ولكننا نعلم انها تطلب قلب السلطان في مقابل حبها
وتضحياتها ، فلو قبلت المال لخسرت هذه الفرصة وأصبح مضمون
تضحياتها ضائعاً . وانما تريد ما هو فوق المال . تريد سعادة الفكر
والروح في تقدير السلطان لها . وليس في آخر المسرحية ما ينفي
احتمال حصولها على هذه المكانة في قلب من أحبت ، فالسلطان فيما
يلوح قدبادلها احساسها المبهور الى درجة انه قال لها : « لن أنسى
ابداً اني كنت عبدك ليلة . » وهي عبارة كبيرة المغزى تثار لها الفتاة

حتى تبكي ولكنها تحرص على اخفاء دموعها . ومما يؤيد احتمال
استجابة السلطان لمشاعرها انها سألته قائلة : « اهذه الليلة هي ليلتنا
الاخيرة معاً ؟ » فاجابها : « هذا سؤال عسير الجواب . » ومعنى عدم
قدرته على الاجابة انه يميل اليها ويتأثر بشخصيتها القوية بحيث
لا يستطيع ان يقول لها : « نعم . لن أراك ثانية . » وانما يحار ويتردد
ويتوقف . وفيما بعد أصدر أمراً الى الناس بأن يحترموا هذه السيدة
ويكفوا عن الاساءة اليها بالتسميات الجارحة . فكل هذا قد يوحي
بانه مال اليها ، وقد يعني انه سيتزوج بها في المرحلة التالية حين
تعدل سيرتها وترتفع في أعين الناس . ولكن توفيق الحكيم اعطانا مجرد
لمحات حول هذا الموضوع ولم يقطع بشيء . وانما ترك الامر معلقاً على
تقديرنا واستنتاجاتنا . ومهما يكن فان القارئ ينتهي من القراءة
أسفاً على انه لم ير السلطان يتزوج فعلاً بالفتاة .

٣ - شخصية قاضي القضاة

تبدو شخصية القاضي متناقضة الى حد ملحوظ لا بد للناقد من
ان يأخذ على الأستاذ توفيق ، فان في النفس تساؤلاً فنياً عن التفكك
الملحوظ في هذه الشخصية . ذلك اننا نلاحظ له عبر احداث المسرحية
موقفين متناقضين متعارضين تمام التعارض لا تفسرهما شخصيته ولا
ظروفه . والموقف الاول كان صلباً كل الصلابة ، راسخاً كل الرسوخ ،
وفيه فضل القاضي ان يقتل على ان يخون القانون . فما كادت قضية
عبودية السلطان تعرض حتى اعلن القاضي انه لا يملك وثائق يعق
السلطان ، وعندما اقترح الوزير استعمال الكذب باشاعة زعم يبين
الناس مؤداه ان السلطان قد سبق عتقه ، توقف القاضي ورفض ذلك
في اسلوب جريء لا ينسأه المشاهد ، فقد دار الحوار التالي :

الوزير - يكفي ان نعلن على الملأ ان مولانا السلطان قد اعتق
شريعياً ، اعتقه السلطان الراحل قبل وفاته ، وان الوثائق والحجج
مسجلة ومحفوظة لدى قاضي القضاة ، الموت لمن يجرد على تكذيب ذلك .
القاضي - هناك شخص سوف يكذب ذلك .

الوزير - من هو ؟

القاضي - أنا .

السلطان - انت ؟

القاضي - نعم . أنا يا مولاي . اني لا أستطيع ان اشترك في
هذه المؤامرة .

الوزير - انها ليست مؤامرة . انها خطة لانتقاد الموقف .

القاضي - انها مؤامرة ضد القانون الذي أمثله .

وعندما يقترح السلطان ان يتنحى القاضي ويسكت ويتركه هو
والوزير يتصرفان يعلن القاضي انه سيحكم بطلان كل تصرفات
السلطان ولا يقترح بديلاً لذلك الا احد ثلاثة اما عزله - اي القاضي -
عن منصبه ، او طرده من البلاد ، او قطع رأسه . والا فهو لن يسكت .

وأين هذا الموقف الصلب المتمسك بالحق الذي يحترم القانون
احتراماً مطلقاً ، من الموقف المائع الذي اتخذته القاضي في الفصل
الثالث حين رأى السلطان في بيت الفانية لا يخرج الا اذا أذن لصلاة
الفجر ، فداس القانون والدين معاً وجعل المؤذن يؤذن للفجر في نصف
الليل ، وفي هذا ما فيه من ظلم لامرأة اشترطت ان تتخلى عن أموالها
كلها واتمقت السلطان مقابل ليلة واحدة يقضيها في منزلها . فباي حق
تسلب هذه المرأة حقها ، وشرطها قد قبل وأقره القاضي نفسه ؟ أين
هذا الموقف المرير من ذاك الموقف الاول ؟

معنى هذا كله ان توفيق الحكيم قد زرع شخصية القاضي وادخل
التناقض عليها ، ولسنا ندرى لماذا فعل هذا والبناء الفني للمسرحية
لا يبرره ، حتى مع ملاحظتنا لكون حل العقدة يتوقف على ان تحرم
الفانية تنفيذ شرطها فيخرج السلطان من بيتها قبل الفجر ، لان المؤلف
كان يستطيع ان يجعل مثل هذا التلاعب بالقانون يتم بأمر الوزير بدلاً
من القاضي . ولعل لادينا البدع الاستساذ توفيق تعليلاً يجب عن
سؤالنا ؟

يضاف الى ذلك ، المآخذ الواضح على سلوك القاضي في الفصل الثاني ، فانه باع السلطان بالزاد العلني تنفيذاً للقانون فكان ينبغي له ان يتمسك بصيغة شرعية لهذا البيع ، بدلا من ان يجعله بيما (خاصا) مشروطا بالعتق . ولم يسمع قط ان بيت المال يبيع ملكا بالزاد ويشترط التخلي عنه فوراً . فما معنى ان يشتري الانسان شيئا ثم لا يستطيع ان يملكه ؟ ولو كان ذلك التخلي عن البضاعة المشتراة اختياريا مراعاة لدوافع وطنية يستشيرها القاضي في نفس المشتري لصح الامر ، اما ان يجبر المشتري على العتق فوراً فهو أمر مخالف لقوانين البيع والشراء وما كان ينبغي ان يصدر عن قاض رأينا منه التمسك بالقانون تمسكا متشددا بحيث فضل الموت على مخالفة الشرع . فهذا المآخذ لا يقل عن سابقه جورا وعسفا وهو مناقض حق المناقضة لشخصية قاضي القضاة في الفصل الاول .

وان القارئ ليتساءل معنا : اذا كان القاضي يستسهل اللعب بالقانون فلماذا عرض السلطان للهوان بطرحه في المزاد العلني امام عين الشعب ؟ وقد يمكن ان يبرر ذلك بان القاضي كان مقرضا هدفه اذلال السلطان من وراء ستار الحرص على القانون . لسولا ان اخلاص القاضي للسلطان ملحوظ عبر احداث المسرحية بحيث لا نستطيع ان نشك فيه ، ومن ثم فلا يبقى الا التناقض قائما . وهذا مأخذ اكيد على هذه الشخصية في مسرحية توفيق الحكيم .

٤ - شخصية الوزير

يمكن لنا ان تصور هذا الوزير في اسطر قليلة تفني ، فهو رجل دموي الطباع شرس يسرع الى استعمال السيف ، والقتل عنده أسهل الحلول . ولذلك رأينا يحكم على النخاس بالموت دونما محاكمة قطعا للالسة . وعندما رفض الموكل المجهول توقيع حجة العتق لم يتمهل الوزير وانما أسرع يقترح تعذيبه ، وكذلك اقترح قتل الفانية وقال : « بالسيف يتم كل شيء في سر ويحل في طرفة عين . »

والوزير يميله الى القتل والعنف ، لا يتورع عن ايجاد المبررات لسلوكه ، مثال ذلك انه عندما خشي الا تعتق الفانية السلطان عند الفجر اقترح اتهامها بانها جاسوسة للمغول ليستطيع قطع رأسها فوراً . فهو لا يتحرج من الكذب والظلم ومبداه - على طريقة مكيا فللي - ان الفانية تبرر الوساطة . ومثل هذا الموقف لدى بعض رجال السياسة ، يرتبط في رأبي بقباء متناصل في انفسهم ، وعجز عن رؤية المسالك المتعددة التي يمكن ان يحل بها كل مشكل دون اساءة الى برىء ، او ظلم لمعترض صادق له الحق في اعتراضه .

والى جانب هذا العنف والقباء نجد الوزير مخلصا للسلطان يستعمل كل وسيلة ممكنة في خدمته . ولا يتم هذا عن طيبة النفس في رأينا وانما ينبع من قوة شخصية السلطان واسرها للقلوب . فان للخير اشعاعا وجذبا . ولعل حب الوزير للسلطان قد وهبه شيئا من الذكاء الخاطف أحيانا ، لان حب الخير يوسع النفس الانسانية ويلهمها ويفتح لها ابواب الإدراك . وهكذا نستطيع تبرير الموقف الحكيم الذي وقفه الوزير حين نصح للسلطان بالا يقتل قاضي القضاة قائلا : « لا تصنع من هذا الرجل شهيدا » ثم اضاف يقول : « رب شهيد مجيد له من التأثير والثبوت في ضمير الشعوب ما ليس ملك جبار . » فهذا من امثلة التمقل في حياة وزير دموي يتصف بالقباء .

٣ - فلسفة المؤلف

تختبئ في ثنايا مسرحية السلطان الحائر طائفة من الآراء التي يؤمن بها توفيق الحكيم بحيث يستطيع القارئ استخلاصها . وبرزت هذه الآراء ما حرص المؤلف نفسه على النص عليه في مقدمة المسرحية وهو الحكم بان حل مشكلات العالم والحياة لا ينبغي ان يكون في اللجوء الى القوة والعنف (السيف) وانما القانون هو الحل ، فاذا مفينا في اتباعه نجونا . وقد لخص السلطان هذه الفلسفة بقوله : « ان الذي يمضي قدما الى الامام في خط مستقيم يجد دائما مخرجا . »

ومذهب توفيق الحكيم في هذا ان القنابل الذرية لا تحل مشاكل العالم وانما الحل في الصبر والتحمل واتباع القانون واقامة الحق والعدل ، وهو رأي حكيم فيه نبيل وسمو ، فضلا عن ان الواقع يشته .

ولكن توفيق الحكيم يشير الى ان اتباع هذا الرأي ليس سهلا وانما الطريق كله شوك وأبر ، فلقد أرانا هذا السلطان يحتمل الهوان فيباع بالزاد العلني ويضطر الى قضاء ليلة في منزل امرأة مشبوهة ملوثة السمعة . على ان الامر كله ينتهي الى الخير ، فاذا نبيل السلطان يؤدي الى ارتفاع نفسيات الاشخاص المحيطين به ، فتتحول الفانية من تلك الفتاة الانانية التي تصرح « مالي . مالي ! » الى اخرى نبيلة ترفض ان تعطي ثمننا لفضلها وكرمها وتأسى الا ان تتمسك بالذكرى الجميلة ، ذكرى المساهمة في عمل وطني نبيل .

ولقد كانت شخصية هذه الفانية صورة من فلسفة توفيق الحكيم حول المرأة ، فان هذا الكاتب الذي اعلن نفسه حينما عدوا للمرأة انما يصدر في ضيقه بمسلكها عن نظرة مثالية اليها ، فهو يريد المرأة قوية الشخصية تؤدي اعمالا بطولية خارقة لا يقدر عليها انسان . ومن امثلة هذا في مسرحه تمثيلية « الخروج من الجنة » وفيها شخصية السيدة (عنان) زوجة مختار . وقد اكتشفت بعد زواجها انها تحب زوجها وتعجب به أشد الاعجاب ، فضنت بحبها ان يبتذل بالفة الزواج ورتابة حياته اليومية ، وأردت ان تبقى حبا خالصا فطلبت الطلاق من زوجها ، وابتعدت عنه مختارة لتصون جوهر حبا وترفعه عن الابتدال والتلوث . وهذا موقف عسير على القلب الانساني ، ربما لم يطقه بشر ، ولذلك كتب الاستاذ توفيق على مسرحيته تلك ان شخصية (عنان) مصنوعة من الخيال فلا وجود لها الا في ذهن مؤلفها . والواقع انها ضحت بقلبها وحبها في سبيل فكرة مثالية عالية لا يطاق الوصول اليها . والشخصية كلها صورة من رغبة توفيق الحكيم في ان يرى المرأة شامخة قوية ذات مثل راسخة بحيث تتحدى الجبال ، فاذا قصرت عن ذلك اعلن نفسه عدوا لها .

وغاية « السلطان الحائر » لا تخلو من ملامح المثالية التي يبحث عنها توفيق الحكيم لانها تتحدى المجتمع تحديا سافرا جريئا لا تخشى فيه حتى ان توصم بأنها « عاهرة » . وبرز ما يميز هذه الفانية انها شريفة غير ملوثة تخالط الرجال حبا لارواحهم مترفة بنفسها عن الاتصالات المدنية ، باحثة عن الثقافة والفن والمتعة البريئة . وليس يخفى ان هذه الفانية قد عاشت في عصر كان المجتمع فيه يعزل المرأة عن الحياة ويحبها الى السلبية والهوان . ولقد أرادت الفانية ان تخرج من هذا الاطار الضيق ففتحت باب بيتها ورفعت صلة المرأة بالرجل من علاقة المادية الحيوانية الى علاقة الفكر والروح ، ودفعت ثمن ذلك من سمعتها فكان هذا هو موضع الجراءة والتحدى . وفي موقف الفانية نوع من الاستشهاد الروحي والفكري ، فهي تصحى بنفسها في سبيل فكرة . تريد ان ترفع المرأة وتطهر علاقتها بالرجل من ربة المادية الجسدية وتوصلها الى ربة الصداقة الفكرية والروحية . وكل هذه القيم متضمنة في موقف الفانية وان لم تصرح بها او تشخصها تماما .

ثم ان شخصية الفانية قد ذكرتها بشخصية (شهزاد) لتوفيق الحكيم في مسرحيته المعروفة . فان بين الشخصيتين تشابها عاما . وما الذي تمثله شهزاد بالمعنى الفكري ؟ انها تتصف قبل كل شيء بقوة الشخصية بحيث تتحدى الخطر فتقدم باختيارها على مجابهة ملك دموي متورق يقتل امرأة كل ليلة . وعندما ينهها ابوها - الذي يمثل المجتمع - عن ذلك تطمئنه وتصر على موقفها الجريء . والجوهر في مسلكها هذا انها تقدم نفسها ضحية في سبيل انقاذ المئات من النساء ، وهي اذ تفعل هذا انما تقامر بحياتها مقامرة لا يعلم نتائجها الا الله ، فاما ان تثبت أصالة ذهنها وقوة شخصيتها فتتسر روح الملك وبذلك تنجو ، او ان يظهر عجزها وضعفها فتقتل كما قتلت قبلها مئات من الفتيات . ولكن شهزاد اذ تقدم تشعر انها قادرة على النجاح وان النصر

تعلم انها أقرب الى قلبه عندما تتخذ هذا الوضع . ولذلك اختارته .

بقي من أفكار توفيق الحكيم ما يبدو لي انه رايه في مسألة الصبث بالاذان لاسباب دينوية . والظاهر من سياق الصياغة في المسرحية ان المؤلف يرى ان ينزه الاذان عن ان يستعمل توقيتا لكذا وكذا من اغراض الدنيا العابرة . فذلك وقت الصلاة ولا ينبغي الصبث به لاي سبب من الاسباب . اما من يعبت به فهو يعرض نفسه الى المشاكل عاجلا او آجلا . وقد صور المؤلف هذه الفكرة عندما جعل الفاتية في الفصل الاول تقري المؤذن بالصبث بوقت الاذان ، وكان دافعها الى ذلك نبلا ولا ريب فقد ارادت انفاذ حياة الحكوم عليه الذي قضى عليه ان يعدم عند اذان الفجر . ففي هذه الحالة استخدمت الفاتية الاذان ضد الجلاد والوزير . فماذا كانت النتيجة ؟ استخدم الاذان ضد الفاتية نفسها في الفصل الثالث ، حين اشترطت ان تنعم بزيارة السلطان لمنزلها حتى اذان الفجر ، فاذا قاضي القضاة يقدم الاذان الى نصف الليل ويحرمها نشوة السعادة ، وبذلك أصبح الاذان ضربة فاصمة لرغباتها . وتلك هي العبرة ، فالعبث بالفوانين والشرائع قد يكون في صالح العايب حينما وفي صالح اعدائه حينما آخر . والافضل ان تصان الشرائع ولا تمس قداستها . وذلك معنى متفرع من المفزى العام للمسرحية .

وآخر ما نحب ان نقول ان توفيق الحكيم قد وفق في هذه المسرحية الى الجمع بين الحركة المسرحية الحية ، وقوة الفكرة ، وتنوع الشخصيات ، وجمال الحوار ، يضاف الى ذلك انه استطاع ان يجعل الاحداث تنطق نطقا معبرا وتبين عن معان فلسفية وقضايا فكرية مهمة مثل ارتفاع العدالة والقانون عاليا فوق المصلحة الشخصية التي تضمنها قوة السلاح . ومثل صلة الخير والخلق الكريم بالجمال والحب ، ومثل العلاقة بين الحرية والاخلاق . وقد رفع ذلك كله مستوى المسرحية وجعلها في مكان رفيع بين مسرحيات توفيق الحكيم .

نأزك الملائكة

الكويت

الفكري والروحي سيكون لها . ولذلك كانت المرأة الوحيدة التي تقدمت الى الملك طائعة غير مجبرة ، وسرعان ما انتصرت انتصارا باهرا ، فلم يكتف الملك باعفائها من القتل وانما بات أسير حبها وارتفع على يديها الى مرتبة الفيلسوف . وهذه هي اللمسة المثالية التي اجتذبت توفيق الحكيم الى حكاية شهرزاد ، فهو يجد فيها صورة من المرأة النموذجية التي يجلم بها . المرأة التي تصحي بنفسها من أجل القيم العليا ، وتلمه الرجل وتفتح له ابواب الفكر والروح على مصارعها .

وهذه الفاتية ؟ ألم تصح بنفسها من أجل القيم الاجتماعية ؟ اما كان مجتمعها مهيدا بان يفقد ملكه الشجاع العادل العظيم ؟ اما تطوعت بمآلها جميعا لانفاذه ؟ وعندما عرفت انه بين اثنين اما ان يفقد عرشه ويصبح مملوكا لها ، او ان يحكم وهو حر لاسطورة لها عليه . اذ ذلك . . اما رايانها تصحي بمصلحتها الفردية وتختار المسلك العسير فتتخلى عن بطلها وحبيبها ؟ هنا لمسة السماحة والبطولة في شخصيتها وذلك ما يحبه توفيق الحكيم في المرأة ، ولذلك رفع الفاتية من مستوى العاهرة الى مرتبة السيدة الفاضلة الخيرة .

وكما انتصرت شهرزاد على الملك شهريار انتصرت الفاتية على سلطانها فقال لها انه لن ينسى هذه الليلة التي كان خلالها عبدا لها . فالانقياد الروحي من الملك موجود في الحالتين ، والرجل قد انقاد للمرأة بروحه وذهنه وأحبها وارتفع الى مرتبة الالهام على يدها . وكل هذه المعاني كامنة في صياغة المسرحية . ولعل الاسناد توفيق قد فسد شيئا منها عندما جعل السلطان والفاتية يذكران شهرزاد وموقفها في (الف ليلة وليلة) . وقد بلغ من احساس السلطان بسطوة الفاتية انه لم يشبهها بشهرزاد بل رأى فيها سطوة شهريار وجبروته لانه احس انها كانت هي التي تمسك بزمام الموقف . ولكن الفاتية سرعان ما تابى هذا الحكم ونرد الى نفسها رقة المرأة واستسلامها للمهم وحكمتها في الايحاء والتوجيه الخفي فقالت له : « لا . أنت السلطان دائما . اما انا فهي التي في وضع شهرزاد الجالسة دائما عند قدميك . » وهي

أصول الفكر الماركسي

تأليف او غست كورنو

ترجمة مجاهد عبد المنعم مجاهد

رحلة من داخل الفكر الماركسي وتأصيل للحركة الماركسية في الفكر الالمانى قبل ماركس بدءا من الفلسفة العقلانية الى الحركة الرومانتية ثم وقفة كبيرة عند هيغل من حيث هو مصدر غنى للفكر الماركسي ثم وقفة كبيرة اخرى عند اليسار الهيفلي بصفة عامة ولودفيغ فيورباخ بصفة خاصة . . وهنا يهتم المؤلف بابرار فكرة الاغتراب عند كل من هيغل ثم موسى هس وفيورباخ ، وهي تلك الفكرة التي اثرت على ماركس الشاب ويبحث في المكونات الفلسفية وتطوره الفكري حتى البيان الشيوعي بعد ان تكون رحلة الاصول قد استكملت . .

والمؤلف واحد من كبار المفكرين الماديين واستاذ للتاريخ الثقافي بجامعة همبولدت ببرلين . . وهو من اوائل من اهتموا بمشكلة القرية عند ماركس وركز على مخطوطة ماركس الاقتصادية والفلسفية التي نشرت في الثلث الثاني من القرن العشرين وعدلت النظر الى كارل ماركس . .

صدر حديثا - عن دار « الاداب »

الثلث ٣٠٠ ق . ل